الضمير

الضميرُ قوّةٌ من قوى النفس، بها يُقابل الانسانُ أعمالهُ على الناموس الأدبي، ويشعر بالسرور أو الكدَر لمطابقة أعمالِهِ لذلك الناموس أو لمخالفتها . فالضمير يستحثُّ الانسان على إتمام الواجب، ويدفعهُ على عمل الخير، أو يبكّتهُ على ارتكاب المنكر. فهو بشير السعادة الأبدية، ونذير الهلاك الدائم

ليست أفعال الحيوان ناجمةً عن شعورٍ بوجوب قضائها، وتحتُّم إجرائها . بل هي ناتجةٌ إما عن خوفٍ واقع، وإما احتياج دافع . وليس الانسان كذلك، بل انّ المبدع الحكيم خصَّهُ بطبيعةٍ أدبية، وصفاتٍ كمالية فطرية . فسنَّ له ناموس المحبة الكامل، وجعل له قائداً يُرشدهُ اليهِ، ودليلاً يدلهُ عليهِ، وما ذاكَ المرشد الدليل إلاَّ الضمير

إذا أردنا أن نحكم على أعمال الغير، نتصوَّر ما يبدو لنا من أعمالهم وما ينبئُ عن أفعالهم . ونقابل ذلك على الناموس الأدبي، فيتّضح لنا ما ينطبقُ عليهِ، وما يشذُّ عنهُ، ومن ثَمَّ يكون حكمنا صحيحاً مبنياً على التحقيق، صادراً عن العقل الأدبي وليس عن الضمير، لذلك لا نشعر في هذا الحكم بنخزه ولا بمدحه

وليس الضميرُ معلولَ الخوف، اذ انهُ موجودٌ في من تسنّموا أسمى المراتب، واستلموا زمام الأمور، يديرونها كيفما شاؤوا وشاء الهوى ، نخافهم الجميع ولم يخافوا أحداً

وليس الضمير أثراً لملكةٍ استحكمت في الأذهان بالتكرار، ورسخت في النفوس مع تمادي الأدهار، ولا مما تدعو اليهِ قوّة الوهم، أو صلاح المعيشة، أو حبُّ السلام، فان هذه عللٌ متباينة في ذاتها، فضلاً عن تفاوت الأشخاص، في الميل اليها، والاستعداد الفطري لقبولها، فمعلولاتها تكون مختلفة في الماهيـة ومتعدّدة، والضمير لا يتعدّد في الانسان، ولا تتفاوت ماهيته باختلاف الأحوال والأزمان

وقد خلط بعضهم الضمير مع البواعث الأدبية كالميل للرحمة، وايثار العدل، وحبّ الحقيقة. هذه البواعث هي غرائز أدبية، ضرورية لارشاد الانسان ولا سيما في حالته الأولى، حينما كان حجاب الجهل مسدولاً، وهي تظهر في هيئات خصوصية معدودة، وافعال محصورة محدودة، ولا تتضمن واجباً كالضمير، فضلاً عن أنها كثيرًا ما يعارض بعضُها بعضاً، فهي مفتقرة الى قانون يُنظّمها: تعطف الغنيّ عواطفُ الشفقة على الفقراء وتدفعهُ لمساعدتهم، ولربَّما جنح بعضهم من جراء ذلك الى الخمول، فانقطع عن العمل، متربعاً على بساط الكسل، فتكون الرحمة لمثل هؤلاء ظلماً، والاحسان اليهم إساءةً وجرماً

وكثيرًا ما تكون الرحمة واجبة، حيث العقاب ضروري اقتضاءً للعدل؛ فان كان العدل مجرّداً، لا دخل للمحبة فيه، تعذّر وجود الرحمة. لذلك لا بدّ لهذه البواعث من شروطٍ تجب مراعاتها، ونظام تجري عليه، حتى الحقيقة فانها لا تقال في كل الأوقات

والضمير يشابه العقلَ في بعض أعماله: فانّ من أعمال العقل

إدراك الأوليّات، نحو كل جسم موجود في مكان، وكل تغير حادث في زمان، وكل حادث له سبب وما أشبه من البديهيات التي لا تفتقر الى برهان، ولا يختلف فيها اثنان

كذلك من أعمال الضمير ما هو بديهي لا يحتاجُ الى شروط ووسائط، كالرغبة في الخير والابتعاد عن الشرّ، تسديداً لمطالب الناموس الأدبي، الآمر بعمل الخير، واجتناب الضير. فمن آثر الشرّ على الخير يسيء لنفسهِ أولاً ويضعف صوت ضميره، لعدوله عن سبيل الحق المنير وتسكعه في ظلمات الغرور

وقد يحول بين الضمير والحقيقة حجابٌ من نسيج الجهل، أو فاصل من مادة المآرب الشخصية، أو غشاء من ظلمة التهوُّر في دنايا الدنيا فيجنح المرءُ الى الشرّ بدلاً من الخير، ويشتري الضلالة بالهدى، ويسقط من أوج الفضيلة، الى أقصى دركاتَ الرذيلة، وبئس المصير، مصير المنافقين

أمّا المستقيم في أعماله، الصادق في أقواله، المتحلي بحلى الفضائل السالك في منهج الكمال، فله من راحة ضميره الحيّ سرورٌ لا يحيط بهِ الوصف، ولا يقوى على تبيان محاسنه البيان. سرور لا يدانيه في التأثير جمال المناظر الطبيعية، ولا عذوبة الانغام الموسيقية، فلا غرو إن قيل :

إن الضمير صوت الله في الانسان مرمس عبد الملك